

الإمام الرضا عليه السلام

منبر العلم والفضيلة

علي بن موسى الرضا



الإمامة العامة العبدية الكريمة المقدسة
قسم الثقافة والإعلام
المسؤول: الفكرة والنقدية



الإمام الرضا
عليه السلام..

منبر العلم والفضيلة



الإمامة العظمى للعلامة العبدية الباطنية المقدسة

قسم الثقافة والإعلام

الشيعة الفقيهين والثقلين

١٤٣٣ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَلْ قَوْلَاتِنَا فِيهِ صُدُورٌ لِّذِينَ
لَوْ عَلِمُوا بِمَا جَحَبْنَا لَكِ الظَّالِمُونَ

سورة العنكبوت آية ٤٩

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد المصطفى سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله الكرام الطيبين الطاهرين..

لقد كان من ضمن اهتمامات الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وحرصه الشديد هو بناء الإنسان فكريا وتربويا وتسليحه بثقافة محصنة بعلم لا يؤخذ إلا من منابعه الصحيحة وذلك بسبب نشوء حركات فكرية بلغت الغاية في نشاطها وانتشارها بعد أن اتسعت رقعة الإسلام وكثرت الفتوحات ما أدى إلى اتصال المسلمين بالأمم الأخرى، فظهرت على إثر ذلك مقالات غريبة وتيارات أجنبية عن الإسلام وكان الملحدون يلقون الشبهات، والمرجئة يساندون حكام الجور، والمغالون يدعون مع الله آلهة أخرى والخوارج يكفرون المسلمين، وكثير من الرواة يضعون الأحاديث بطلب من الحكام لأغراض سياسية وغيرها، وكانت صور الصراع الفكري تتمثل في الخطابات المتبادلة ومجالس المناظرة.

وفي هذا العصر انتشر فكر أهل البيت عليهم السلام، وبرزت معالمه، وتركزت أسسه وانتشر فقه الشيعة وناظر متكلموهم خصومهم في مسائل التوحيد والعدل وعصمة الأنبياء وما إلى ذلك من مسائل عقيدية، كل ذلك بفضل الجهد العلمي

الكبير الذي اضطلع به الإمام الصادق عليه السلام، وكان من نتائج هذا الجهد المبارك أن عرف المذهب على حقيقته، أصولاً وفروعاً.

وعمد الإمام الكاظم عليه السلام على تعميق أسس مدرسة أبيه الصادق عليه السلام وقام بتوضيح معالمها أكثر فأكثر، ولكن الظروف الاستثنائية التي عاشها وقضاءه شطراً من عمره في السجون لم تمكنه من تحقيق سائر أهدافه الشريفة في إحياء السنة النبوية الشريفة على ضوء مدرسة أبيه عليه السلام، فبلغ به الأمر أن يبعث إلى هشام بن الحكم بأن يكف عن الكلام نظراً لخطورة الموقف، فكف هشام عن ذلك حتى مات المهدي العباسي^(١)، مع ذلك استثمر الإمام الكاظم عليه السلام فترات الهدوء النسبي لنشر الأحكام والتعاليم الإسلامية الصافية، وكان العلماء والرواة لا يفارقونه ولا يفترقون عنه، يسجلون أحاديثه وأبحاثه.

روى السيد ابن طاووس: أنه كان جماعة من خاصة أبي الحسن موسى عليه السلام من أهل بيته وشيعته يحضرون مجلسه، ومعهم في أكمامهم ألواح أبنوس وأميال، فإذا نطق بكلمة وأفتى في نازلة أثبت القوم ما سمعوا منه في ذلك^(٢).

(١) انظر: رجال الكشي: ٢٢٧، رقم الترجمة (١٣١).

(٢) مهج الدعوات / ابن طاووس: ٢١٩.

حتى جاء دور الإمام الرضا عليه السلام بنشر فكر مدرسة أهل البيت عليهم السلام العقائدية منها والفقهية، وكان في فترة ولاية العهد يعقد المؤتمرات والندوات، ويروى أن المأمون كان يجمع علماء الممل والنحل مثل الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصابئة والنصارى والمتكلم سليمان المروزي، فكان الإمام الرضا عليه السلام يدحض حججهم ويصحح مفاهيمهم الخاطئة، وينشر الوعي الإيماني حتى أسلم على يديه بعض الملاحدة والنصارى^(١).

وكانت شهرته قد طبقت الآفاق، وغدا شخصه العظيم حديث الساعة حينئذ، ومحط اهتمام العلماء لغزارة علمه ومتانة استدلاله، وقد حفظ لنا التاريخ روائع رضوية كثيرة في هذا المجال.

وعموماً كان عصره عليه السلام عصر الجدل والنظر والبحث، وبتعبير معاصر عصر «التعددية الثقافية» فقد حاور الإمام عليه السلام أهل الممل والنحل والأهواء وعلماء المذاهب الإسلامية وعلى العكس من الجو السياسي السيء والمضطرب، الذي عاصره الإمام عليه السلام كان الجو الثقافي يمتاز بالافتح النسبي، ملائماً للحوار وعرض الأفكار وكان المأمون يشجع هكذا حوار

(١) انظر: أعيان الشيعة ٢: ١٤.

لإشغال الناس في مشاكل جانبية بعيدا عن مشاكل الحكم
والسياسة.

وسنتعرض في هذا البحث إلى موضوعين رئيسيين هما
حوارات الإمام الرضا عليه السلام ومناظراته مع أصحاب الديانات
الأخرى تارة ومع المسلمين تارة أخرى، كما سنتناول أساليب
الإمام الرضا عليه السلام في التربية لإيجاد مجتمع رصين يتمتع
بأفكار سليمة وسلوك قويم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من
المتمسكين بمحمد وآل محمد والملتزمين بوصاياهم إنه
سميع مجيب.

حوارته عليه السلام مع أهل الأديان

اتَّخذ الإمام الرضا عليه السلام من الحوار الهادف، المبني على الدليل، وسيلة إلى الإقناع، وكان حوارهِ عليه السلام مع أهل الأديان والعقائد المختلفة حواراً مفتوحاً، وذلك من خلال المناظرات التي عقدها معهم، وسعى من خلالها على إطلاق العقول من عقال الجهل والحيرة والضلالة، ولعل أهم شاهد نسوقه في هذا المجال مجلس الإمام الرضا عليه السلام مع أهل الأديان وأصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس الجالوت وعمران الصائب والهريذ الأكبر، في التوحيد، عند المأمون، ودار الحوار فيها حول مواضيع عقائدية حساسة، وقد استطاع الإمام الرضا عليه السلام تحقيق ما يأتي:

أولاً: إثبات نبوة نبينا صلى الله عليه وآله من الكتب السماوية

تتضح لنا عظمة وعلمية الإمام الرضا عليه السلام وكونه حجة لله على عباده من خلال معرفته الكاملة بالكتب السماوية، وحفظه التام لمتونها وإطلاعه الدقيق على ما تتضمنه من نصوص تثبت نبوة نبينا صلى الله عليه وآله بحيث لا يسعهم انكارها والتنصل منها، يتضح لنا ذلك من المناظرة التي جرت بمحضر المأمون وبطلب منه بين الإمام الرضا عليه السلام وبين

الجاثليق النصراني ورأس الجالوت اليهودي، وقد طلب الجاثليق من الإمام الرضا عليه السلام بعد كلام بينهما أن يقيم شاهدي عدل على ما يقوله في إثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله بقوله: فأقم شاهدين من غير أهل ملّتك على نبوة محمد ممن لا تنكره النصرانية، وسلنا مثل ذلك من غير أهل ملتنا.

قال الرضا عليه السلام: «الآن جئت بالنّصف يا نصراني، ألا تقبل مني العدل المقدم عند المسيح بن مريم؟».

قال الجاثليق: ومن هذا العدل؟ سمّه لي. قال: «ما تقول في يوحنا الديلمي؟» قال: بخٍ بخٍ، ذكرت أحبّ الناس إلى المسيح.

قال: «فأقسمتُ عليك هل نطق الإنجيل أن يوحنا قال: إنَّ المسيح أخبرني بدين محمد العربي وبشّرني به أنه يكون من بعده فبشّرتُ به الحواريين فأمنوا به؟» قال الجاثليق: قد ذكر ذلك يوحنا عن المسيح وبشّر بنبوة رجل وبأهل بيته ووصيه، ولم يُلخّص متى يكون ذلك ولم يُسمِّ لنا القوم فنعرّفهم، قال الرضا عليه السلام: «فإن جئناك بمن يقرء الإنجيل فتلا عليك ذكر محمد وأهل بيته وأمته أتؤمن به؟» قال: سديدا.

قال الرضا عليه السلام لقسطاس الرومي: «كيف حفظك للسفر الثالث من الإنجيل؟».

قال: ما أحفظني له! ثم التفت إلى رأس الجالوت فقال له: «ألست تقرُّ الإنجيل؟» قال: بلى لعمرى. قال: «فخذ على السُّفر الثالث، فإن كان فيه ذكر محمد وأهل بيته وأمته سلام الله عليهم فاشهدوا لي» وإن لم يكن فيه ذكره فلا تشهدوا لي، ثم قرأ ﷺ السُّفر الثالث حتى إذا بلغ ذكر النبي ﷺ وقف، ثم قال: «يا نصراني إنِّي أسألك بحق المسيح وأمه أتعلم أنني عالم بالإنجيل؟» قال: نعم، ثم تلا علينا ذكر محمد وأهل بيته وأمته، ثم قال: «ما تقول يا نصراني؟ هذا قول عيسى بن مريم فإن كذبت ما ينطق به الإنجيل فقد كذبت عيسى وموسى ﷺ، ومتى أنكرت هذا الذِّكر وجب عليك القتل لأنك تكون قد كفرت برَّبِّك ونبِيِّك وكتابك».

قال الجاثليق: لا أنكر ما قد بان لي في الإنجيل، وإنِّي لمقرُّ به.

قال الرُّضا ﷺ: «اشهدوا على إقراره».

ثم قال ﷺ: «يا جاثليق سل عما بدا لك»، قال الجاثليق: أخبرني عن حواربي عيسى بن مريم، كم عدَّتْهم؟ وعن علماء الإنجيل، كم كانوا؟

قال الرُّضا ﷺ: «على الخبير سقطت، أما الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً، وكان أفضلهم وأعلمهم ألوقا، وأمَّا علماء النَّصارى فكانوا ثلاثة رجال: يوحنا الأكبر بأج، ويوحنا

بقرقيسيا، ويوحنا الديلمي بزجان، وعنده كان ذكرُ النَّبِيِّ
ﷺ وذكر أهل بيته وأُمته، وهو الذي بشر أُمَّة عيسى وبنِي
إسرائيل به»^(١).

والملاحظ أنه مع براعة اليهود في تحريف الكلم عن
مواضعه، تمكن إمامنا الرضا ﷺ من إسكات رأس الجالوت،
وفي سكوته هذا إقرار منه بما جاء في التوراة والإنجيل من
البشارة بنبوة نبينا محمد ﷺ.

هذا، وفي المجلس نفسه طلب رأس الجالوت من الإمام
الرضا ﷺ أن لا يحتج عليه إلا بما في التوراة أو الإنجيل
أو الزبور في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ فقال ﷺ: «شهد
بنبوته ﷺ موسى بن عمران وعيسى بن مريم وداود خليفة
الله عز وجل في الأرض».

فقال له: أثبت قول موسى بن عمران.

قال الرضا ﷺ: «هل تعلم يا يهودي أن موسى أوصى بني
إسرائيل، فقال لهم: إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ نَبِيٌّ هُوَ مِنْ إِخْوَتِكُمْ فِيهِ
فَصَدِّقُوا، وَمِنْهُ فَاسْمَعُوا؟ فَهَلْ تَعْلَمُ أَنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِخْوَةً
غَيْرَ وُلْدِ إِسْرَائِيلَ مِنْ إِسْمَاعِيلَ وَالنَّسَبِ الَّذِي بَيْنَهُمَا مِنْ قَبْلِ
إِبْرَاهِيمَ ﷺ؟».

(١) التوحيد / الصدوق: ٤١٧ وما بعدها، باب (٦٥).

فقال رأس الجالوت: هذا قول موسى لا ندفعه.

فقال له الرضا عليه السلام: «هل جاءكم من إخوة بني إسرائيل نبي غير محمد صلى الله عليه وآله؟» قال: لا.

قال الرضا عليه السلام: «أو ليس قد صحَّ هذا عندكم؟» قال: نعم، ولكنني أحبُّ أن تصحَّحه لي من التوراة.

فقال له الرضا عليه السلام: «هل تنكر أنَّ التوراة تقولُ لكم: جاء النُّورُ من جبل طور سيناء، وأضاء لنا من جبل ساعير، واستعلن علينا من جبل فاران؟».

قال رأس الجالوت: أعرفُ هذه الكلمات، وما أعرفُ تفسيرها.

قال الرضا عليه السلام: «أنا أخبرك به، أمَّا قوله: جاء النُّورُ من جبل طور سيناء، فذلك وحيُّ الله تبارك وتعالى الذي أنزلهُ على موسى عليه السلام على جبل طور سيناء، وأمَّا قوله: وأضاء لنا من جبل ساعير، فهو الجبل الذي أوحى الله عزَّوجلَّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام وهو عليه، وأمَّا قوله: واستعلن علينا من جبل فاران، فذلك جبل من جبال مكة بينه وبينها يوم، وقال شعيا النَّبيِّ عليه السلام فيما تقول أنت وأصحابك في التوراة: رأيت راكبين أضاء لهما الأرض، أحدهما راكب على حمار والآخر على جمل، فمن راكب الحمار ومن راكب الجمل؟».

قال رأس الجالوت: لا أعرفهما، فخبّرني بهما.

قال عليه السلام: «أما راكب الحمار فعيسى بن مريم، وأما راكب الجمل فمحمد صلى الله عليه وسلم، أتكر هذا من التوراة؟» قال: لا ما أنكره.

ثم استعرض الإمام الرضا عليه السلام نصوصاً أخرى من التوراة والإنجيل تبشّر بنبوّة نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم التفت عليه السلام إلى رأس الجالوت فقال: «يا يهودي أقبل عليّ أسألك بالعشر الآيات التي أنزلت على موسى بن عمران عليه السلام، هل تجد في التوراة مكتوباً نبأ محمد وأُمَّته: (إذا جاءت الأمة الأخيرة أتباع راكب البعير يُسبِّحون الربَّ جدًّا جدًّا تسبيحاً جديداً في الكنائس الجدد، فليفرغ بنو إسرائيل إليهم وإلى ملكهم لتطمئن قلوبهم، فإن بأيديهم سيؤفوا ينتقمون بها من الأمم الكافرة في أقطار الأرض) هكذا هو في التوراة مكتوب؟».

قال رأس الجالوت: نعم إنّنا لنجده كذلك.

ثم قال للجاثليق: «يا نصرانيّ كيف علمك بكتاب شعيا؟» قال: أعرفه حرفاً حرفاً.

قال الرضا عليه السلام لهما: «أتعرفان هذا من كلامه: يا قوم إنّني رأيت صورة راكب الحمار لابساً جلابيب النور، ورأيت راكب البعير ضوءه مثل ضوء القمر؟ فقالا: قد قال ذلك شعيا.

قال الرضا عليه السلام: «يا نصراني، هل تعرف في الإنجيل قول عيسى: إنِّي ذاهب إلى ربِّي وربِّكم، والفارقليطا جاء هو الَّذي يشهد لي بالحقِّ كما شهدتُ له، وهو يُفسر لكم كلَّ شيءٍ، وهو الَّذي يُبدي فضائح الأمم، وهو الَّذي يكسر عمود الكفر؟».

فقال الجاثليق: ما ذكرت شيئاً ممَّا في الإنجيل إلَّا ونحن مقرُّون به، فقال: «أتجدُّ هذا في الإنجيل ثابتاً يا جاثليق؟!» قال: نعم^(١).

إن قراءة متمعنة ما بين سطور هذه المناظرة تكشف عن الأفق المعرفي الرَّحْب الذي يتمتع به الإمام الرضا عليه السلام، ويهمننا هنا الإشارة إلى أن إمامنا عليه السلام حاول إصلاح الفكر والمقولات والرؤى لأقطاب أهل الأديان والملل من خلال الحجج القوية المجلجلة التي قرعت آذانهم وأفحمتهم أيّما إفحام. ومن السهل أن نكتشف أن الإمام عليه السلام قد اتبع المنهج النقلي مع أهل الكتاب ممثلين با لجاثليق النصراني ورأس الجالوت اليهودي، فقد احتج على أهل التوراة بتوراتهم، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم، وعلى أهل الزبور بزبورهم لتكون الحجة عليهم أقوم، ولقد وجدنا كيف أن الجاثليق رفض الاحتكام إلى نصوص القرآن، قائلاً منذ البداية: كيف أحاجُّ رجلاً يحتجُّ عليّ بكتاب أنا منكره، ونبِيٌّ لا أوْمَنُ به؟!

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥)

لذلك وقف إمامنا معهم على أرض مشتركة من الفهم،
حيث خاطبهم بلغتهم وأورد نصوصا من كتبهم لا يسعهم
إنكارها .

ثانيا: إبطال عقيدة النصارى في المسيح ﷺ

من المعروف أن النصارى تغلو في شخص النبي عيسى ﷺ
فتسلب منه صفته البشرية وتمنحه صفة الإلوهية، وتعتقد
بأنه ابن الله جلّ تعالي عن ذلك، وإمامنا الرضا ﷺ في الوقت
الذي أثبت فيه نبوة نبينا ﷺ بالدليل النقلى الوارد بالإنجيل
عن طريق بشارة المسيح ﷺ لحوارييه بمبعثه من بعده، أبطل
بالدليل العقلي عقيدة النصارى في المسيح المتّسمة بالغلو
والبعيدة كل البعد عن التنزيه لله تعالى، ففى هذا المجلس
وجه إمامنا كلامه للجاثليق قائلاً:

«يا نصراني والله إنا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد ﷺ
وما ننقم على عيساكم شيئاً إلا ضعفه وقلّة صيامه وصلاته!»

قال الجاثليق: أفسدتَ والله علمك وضعفتَ أمرك، وما
كنتَ ظننتُ إلا أنّك أعلمُ أهل الإسلام!

قال الرضا ﷺ: «وكيف ذلك؟» .

قال الجاثليق: من قولك: «إن عيساكم كان ضعيفا قليلاً الصيام قليل الصلاة»، وما أفطر عيسى يوماً قط وما زال صائماً الدهر، قائم الليل، قال الرضا عليه السلام: فلمن «كان يصوم ويصلي؟» قال: فخرس الجاثليق وانقطع.

قال الرضا عليه السلام: «يا نصراني، إنني أسألك عن مسألة»، قال: سل، فإن كان عندي علمها أجبتك.

قال الرضا عليه السلام: «ما أنكرت أن عيسى كان يحيي الموتى بإذن الله عز وجل؟».

قال الجاثليق: أنكرت ذلك من قبل أن من أحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، فهو ربّ مستحق لأن يُعبد.

قال الرضا عليه السلام: «فإن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى، مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، فلم تتخذة أمته ربّاً، ولم يعبده أحد من دون الله عز وجل، ولقد صنع حزقيل النبي عليه السلام مثل ما صنع عيسى ابن مريم عليها السلام فأحيا خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم بستين سنة... هذا في التوراة لا يدفعه إلا كافر منكم».

قال رأس الجالوت: قد سمعنا به وعرفناه، قال: «صدقت».

ثم قال الرضا عليه السلام: «لقد أبرأ. أي محمد عليه السلام. الأكمه

والأبرص والمجانين وكلمته البهائم والطِّير والجنُّ والشياطين ولم نتخذهُ ربًّا من دون الله عزَّ وجلَّ، ولم ننكر لأحدٍ من هؤلاء فضلهم، فمتى اتخذتم عيسى ربًّا جاز لكم أن تتخذوا اليسع وحزقييل ربًّا، لأنَّهما قد صنعا مثل ما صنع عيسى من إحياء الموتى، وغيره أن قوما من بني إسرائيل هربوا من بلادهم من الطاعون وهم أُلوف حذر الموت فأماتهم الله في ساعة واحدة، فعمد أهل تلك القرية فحظروا عليهم حظيرة فلم يزالوا فيها حتى نخرت عظامهم وصاروا رميما، فمرَّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل فتعجب منهم ومن كثرة العظام البالية، فأوحى الله إليه أتُحِبُّ أن أُحييهم لك فتندرهم؟ قال: نعم ياربُّ، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه أن نادهم، فقال: أَيُّهَا الْعِظَامُ البالية قومي بإذن الله عزَّ وجلَّ، فقاموا أحياءً أجمعين ينفضون التُّراب عن رؤوسهم.

ثمَّ إبراهيم عليه السلام خليل الرَّحمن حين أخذ الطُّيور وقطَّعهنَّ قطعاً ثمَّ وضع على كُلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثمَّ ناداهنَّ فأقبلن سعيًا إليه، ثم موسى بنُ عمران وأصحابه والسَّبْعون الذين اختارهم صاروا معه إلى الجبل فقالوا له: لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً، فأخذتهم الصاعقة فاحترقوا عن آخرهم وبقي موسى وحيداً، فقال: ياربُّ اخترتُ سبعينَ رجلاً من بني إسرائيل فجنَّتْ بهم وأرجعُ وحدي، فكيف يُصدقني قومي بما أخبرهم به، فلو شئتُ أهلكتهم من قبلُ وإيَّاي أفتهلكنا بما

فعل السُّفهاءُ منّا، فأحياهم الله عزَّ وجلَّ من بعد موتهم،
وكلُّ شيءٍ ذكرتهُ لك من هذا لا تقدرُ على دفعه لأنَّ التَّوراةَ
والإنجيلَ والزُّبورَ والفرقانَ قد نطقت به، فإن كان كلُّ من
أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرصَ والمجانين يُتَّخذُ ريباً من دونِ
الله فاتَّخذ هؤلاءُ كلَّهم أرباباً، ما تقولُ يا نصرانيُّ؟».

قال الجاثليقُ: القولُ قولك ولا إله إلاَّ الله، وهكذا أثبت
الإمامُ عليه السلام للجاثليق خطأَ زعمهم إلهية عيسى عليه السلام.

ولما تشعب الكلام معه حول الإنجيل وكيف فقد ومن ثم
كتبه تلاميذ تلاميذ المسيح من بعده، أَمَاطُ الإمام اللثام
عن التحريف الذي حصل للإنجيل بعد ضياعه، وكيف أن
تلاميذ تلاميذ المسيح قد خطوه بأيديهم وحرفوه واختلفوا
فيه حول طبيعة المسيح عليه السلام، أقر الجاثليق بكل ما جاء به
الإمام الرضا عليه السلام عن الإنجيل وكيفية تحريفه، فقال موجهاً
كلامه للإمام عليه السلام:

قد بان لي من فضل علمك بالإنجيل وسمعت أشياء ممَّا
علمته شهد قلبي أنَّها حقٌّ فاستزدتُ كثيراً من الفهم^(١).

وعندما كشف الإمام عليه السلام عن التناقض الذي وقع فيه
علماء الإنجيل. لوقا ومرقابوس ومثي ويوحنا. حول طبيعة

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

المسيح ﷺ، أذعن الجاثليق بهذه الحقائق، وأقر بالعمق
المعريف للرضا ﷺ، ثم قال: فلا وحقّ المسيح ما ظننتُ أنّ في
علماء المسلمين مثلك^(١).

ثالثاً: الردّ على عقيدة اليهود

تطرق إمامنا مع رأس الجالوت إلى معاجز موسى ﷺ
واستغرب من إقراره بها مع انكاره معاجز الأنبياء من قبله
أو من بعده كمعاجز عيسى ﷺ ومحمد ﷺ وتساءل قائلاً:
«أرأيت ما جاء به موسى من الآيات، أشاهدته؟! أليس إنّما
جاء في الاخبار من ثقات أصحاب موسى أنّه فعل ذلك؟!»
قال: بلى.

قال: «فكذلك أتتكم الأخبار المتواترة بما فعل عيسى بنُ
مريم فكيف صدّقتكم بموسى ولم تُصدّقوا بعيسى؟!» فلم
يُحر جواباً.

قال الرضا ﷺ: «كذلك أمرُ محمد ﷺ وما جاء به وأمرُ
كلّ نبيّ بعثه الله، ومن آياته أنّه كان يتيماً فقيراً أجيراً ولم
يختلف إلى معلّم، ثمّ جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء
وأخبارهم حرفاً حرفاً وأخبارُ من مضى ومن بقي إلى يوم

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

القيامة، ثمَّ كان يُخبرهم بأسرارهم وما يعملون في بيوتهم،
وجاء بآيات كثيرة لا تحصى».

قال رأس الجالوت: لم يصحَّ عندنا خبرُ عيسى ولا خبر
محمد، ولا يجوز لنا أن نُقرَّ لهما بما لم يصحَّ.

قال الرضا عليه السلام: «فالشاهدُ الذي شهد لعيسى ومحمد عليهما السلام
شاهدٌ زورٌ!» فلم يُحر جواباً^(١).

رابعاً: الرد على المجوس

ليس خافياً بأن المجوس^(٢) أناس منحرفو العقيدة والفضرة
يعبدون النار ويحللون الزواج من المحارم، من دون دليل أو
برهان سوى التقليد الأعمى للأباء، فحاول إمامنا عليه السلام أن
يدلّهم على الطريق السوي ويوقفهم على أفق أرحب، بعيداً
عن ضيق التفكير ومحدودية التقليد:

دعا الإمام الرضا عليه السلام الهربد الأكبر فقال له: «زرادشت

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

(٢) أتباع زرادشت. وهو رجل من أذربيجان. ادّعى النبوة، ويتفق المجوس على أن
الله تعالى يسلم العالم إلى الشيطان سبعة آلاف سنة يحكم ويفعل ما يريد. وبعد
ذلك عهد أن يقتل الشيطان. وهذا الكلام غير لائق بالعقلاء (انظر: اعتقادات
فرق المسلمين والمشرّكين، فخر الدين الرازي: ١٢٠، الفصل الثالث).

الذي تزعم أنه نبي، ما حُجَّتك على نبوته؟».

قال: إنه أتى بما لم يأتنا به أحد قبله، ولم نشهده، ولكن الأخبار من أسلافنا وردت علينا بأنه أحل لنا ما لم يحله غيره فاتبعناه.

قال عليه السلام: «أفليس إنما أتكم الأخبار فاتبعتموه؟» قال: بلى.

قال: «فكذلك سائر الأمم السالفة أتتهم الأخبار بما أتى به النبيون وأتى به موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، فما عدركم في ترك الإقرار لهم إذ كنتم إنما أقررتم بزرادشت من قبل الأخبار المتواترة بأنه جاء بما لم يجيء به غيره؟» فانقطع الهريذ مكانه^(١).

لقد وجد الإمام عليه السلام أن أصحاب زرادشت تضيق عدسة الرؤية لديهم فيؤمنون بالأخبار الواردة من قبل آبائهم عن زرادشت دون غيره، وهذا التخصيص لا يستقيم على سكة العقل السوية، فإذا كان منهجهم في الاعتقاد قائما على النقل عن الآباء فلماذا لا يعتمدون على ذات المنهج الذي اتبعه الأنبياء؟ الذين جاءوا. كذلك. بما لم يجيء به غيرهم من الشرائع، وفوق ذلك كانوا يبرهنون على صحة نبوتهم بالمعجز الباهرة والبراهين القاطعة؟

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

خامسا: الردّ على الصابئة:

ثم وصلت النوبة إلى عمران الصابئ، وكان واحدا من المتكلمين، فسأل الإمام عليه السلام عن الكائن الأول وعمّا خلق.

قال عليه السلام: «سألت فافهم، أمّا الواحد فلم يزل واحدا كائنا لا شيء معه بلا حدود ولا أعراض ولا يزال كذلك.. واعلم يا عمران أنّه لو كان خلق ما خلق لحاجةٍ لم يخلق إلاّ من يستعين به على حاجته، وكان ينبغي أن يخلق أضعاف ما خلق لأنّ الأعوان كلّما كثروا كان صاحبهم أقوى، والحاجة يا عمران لا يسعها لأنّه لم يحدث من الخلق شيئا إلاّ حدثت فيه حاجةٌ أخرى، ولذلك أقول: لم يخلق الخلق لحاجةٍ، ولكن نقل بالخلق الحوائج بعضهم إلى بعض وفصل بعضهم على بعض، بلا حاجةٍ منه إلى من فصل، ولا نعمةٍ منه على من أذلّ، فلهذا خلق.».

وتطرق معه في النقاش لمسائل مختلفة في توحيد الله وأسفرت هذه المناظرة عن اعتراف عمران الصابئ بصواب أجوبة الإمام الرضا عليه السلام على أسئلته الحساسة والمختلفة، وعلى إثر ذلك أعلن إسلامه أمام المأمون مخاطباً الإمام الرضا عليه السلام بقوله:.. قد فهمتُ وأشهدُ أنّ الله على ما وصفتهُ ووحدتهُ، وأنّ محمدا عبده المبعوث بالهدى ودين الحقّ، ثمّ خرّ ساجدا نحو القبلة وأسلم.

قال الحسنُ بن محمد النُّوفليّ: فلما نظر المتكلمون إلى كلام عمران الصابئ، وكان جدلاً لم يقطعه عن حجّته أحد قط، لم يدنُ من الرُّضا عليه السلام أحد منهم ولم يسأله عن شيء، وأمسينا فنهض المأمون والرُّضا عليه السلام فدخلا وانصرف الناس ^(١).

ويلاحظ أن الإمام عليه السلام قد اتبع المنهج العقلي مع غير أهل الكتاب كأصحاب زرادشت ورؤساء الصابئيين، وذلك لأن هؤلاء لا يؤمنون بالنقل أو النصوص من حيث الأساس.

سادساً: الرد على الزنادقة

وإذا أمعنا النظر في طريقة حوارهم مع الزنادقة نجد أنه اتبع معهم ذات المنهج الأخير. أي المنهج العقلي. لعدم إيمان هؤلاء بالله تعالى وكتبه وأنبيائه، وكان يتبع مع أمثال هؤلاء أسلوب (التداول الحر للأفكار)، يتّضح لنا ذلك من خلال حوار الإمام عليه السلام مع أحد الزنادقة:

عن محمد بن عبد الله الخراساني، خادم الإمام الرضا عليه السلام،

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

قال: دخل رجل من الزنادقة على الرضا عليه السلام وعنده جماعة، فقال له أبو الحسن عليه السلام: «أرأيت إن كان القول قولكم، وليس هو كما تقولون، ألسنا وإياكم شرع سواء، ولا يضرنا ما صلينا وزكينا وأقررنا؟» فسكت، فقال أبو الحسن عليه السلام: «وإن يكن القول قولنا، وهو قولنا، وكما نقول، أستم قد هلكتم ونجونا؟».

قال: رحمك الله فأوجدني كيف هو؟ وأين هو؟ قال: «ويلك، إن الذي ذهبت إليه غلط، وهو أين الأين ولا أين، وكيف الكيف وكان ولا كيف، فلا يُعرف بكيفية، ولا بأينونية، ولا يدرك بحاسة ولا يُقاس بشيء».

قال الرجل: فإذا إنه لا شيء إذا لم يدرك بحاسة من الحواس!

فقال أبو الحسن عليه السلام: «ويلك إذا عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزت حواسنا عن ادراكه أيقنا أنه ربنا، وأنه شيء بخلاف الأشياء».

قال الرجل: فأخبرني متى كان؟!

قال أبو الحسن عليه السلام: «أخبرني متى لم يكن، فأخبرك متى كان؟» .

قال الرجل: فما الدليل عليه؟

قال أبو الحسن عليه السلام: «إني لما نظرت إلى جسدي فلم يمكني زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة اليه، علمت أن لهذا البنيان بانيا، فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات، علمت أن لهذا مقدرًا ومنشأً» .

قال الرجل: فلم احتجب؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنّ الحجاب على الخلق، لكثرة ذنوبهم، فأما هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار» .

قال: فلم لا تدركه حاسة الأبصار؟

قال: «للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار منهم ومن غيرهم، ثم هو أجلّ من أن يدركه بصر أو يحيطه وهم أو يضبطه عقل» .

قال: فحده لي؟

قال: «لا حدّ له»، قال: ولم؟

قال: «لأن كل محدود متناه إلى حدّ، وإذا احتمل التحديد
احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو
غير محدود ولا متزايد ولا متناقص ولا متجزئ ولا
متوهم...»^(١).

نستخلص من هذا النص ومما سبقه أن الإمام عليه السلام كان
يحتاج الخصوم بصدور حب وطول نفس، وبأسلوب يتناسب
مع عقلية الخصم سواء كان من أهل الكتاب أو غيرهم
ليلزمهم بما ألزموا به أنفسهم.

(١) عيون أخبار الرضا ٧: ١ / ١٢٠، ح ٢٨، باب (١١).

حوارته مع أهل الإسلام

لم يهدف الإمام الرضا عليه السلام من مناظراته وخاصة مع أهل الإسلام إلى كسب المناظرة والحوار، وإنما إلى إيصال الحقيقة الدينية الصحيحة، وتنقية العقيدة الإسلامية من كل الشوائب التي لحقت بها والشبهات التي تثار حولها، خصوصاً بعد أن اختلط الحقّ بالباطل، والتبست السنّة بالبدعة. والملاحظ أنه اعتمد في مناظراته مع أهل الإسلام على المنهج النقلي. من قرآن وسنّة نبوية. بصورة أساسية. وكان ينتزع إجاباته من هذين المصدرين بدون تكلف أو اعتساف في تحميل النصوص. علماً بأن المأمون قد جهد منذ البداية على إحراج الإمام الرضا عليه السلام أمام أهل الأديان والملل المختلفة الذين حشدتهم من كل ملة ومكان لأجل هذه الغاية.

ولكنه خابت ظنونه بأهل الأديان وخسر الصفقة، ومن هنا حاول أن يعيد التجربة، فحشد له. هذه المرّة. أبرز علماء الإسلام ومتكلميه، أمثال: علي بن محمد بن الجهم ويحيى بن الضحّاك السمرقنديّ وسليمان المروزيّ، وكان العالمان الأخيران من أبرز علماء خراسان في ذلك الزمان.

وكان المأمون يأمرهم بإثارة مواضيع حساسة مع الإمام

الرضا عليه السلام، كمسألة عصمة الأنبياء، ومسألة الإمامة،
والبداء، وما إلى ذلك .

أولاً: مناظرته عليه السلام حول عصمة الأنبياء:

يعتقد أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الأنبياء (صلى الله عليهم)
معصومون، بمعنى عدم اقترافهم جريمة، ولا ذنب ولا خطيئة
حتى الغلط والخطأ والسهو والغفلة والنسيان. ومعصومون
كذلك عن كل ما ينفي الحشمة والكرامة منذ ولادتهم وإلى
وفاتهم. والشيعية الإمامية يقولون بعصمة الأنبياء قبل
البعثة وبعدها، ويستدلون على وجوب عصمتهم بأدلة عقلية
عديدة.

ولما كان بعض المسلمين يجوّز صغائر الذنوب على الأنبياء،
كالمعتزلة، والبعض الآخر كالأشعرية والحشوية يُجوز ارتكابهم
الكبائر فضلاً عن الصغائر، إلا الكفر والكذب، ويستدلون
على ذلك بظواهر بعض الآيات القرآنية.

وجد أئمة أهل البيت عليهم السلام أن هذا الفهم يتصادم مع العقل
ولا يليق بمكانة الأنبياء عليهم السلام ومنزلتهم، ويترك آثاراً سلبية
على العقيدة الإسلامية، فقاموا، وهم تراجم القرآن، ببيان
شافٍ لجميع الآيات التي يظهر منها نسبة الخطأ أو المعصية

للأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وقد قام إمامنا الرضا عليه السلام بإماطة الستار عن المعاني القرآنية الحقيقية التي تتحدث عن الأنبياء والرسل، وبدد ضباب الغبش والتشويش وسوء الفهم الذي حجب دلالاتها.

عن أبي الصلت الهروي قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات، فلم يقم أحد إلا وقد ألزمه حجته كأنه ألقم حجرا، قام إليه علي بن محمد بن الجهم، فقال له: يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟

قال: «نعم».

قال: فما تعمل في قول الله عز وجل: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) ^(١) وفي قوله عز وجل: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) ^(٢) وفي قوله عز وجل في يوسف عليه السلام: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) ^(٣) وفي قوله عز وجل في داود عليه السلام: (وَوَظَّنَّ دَاوُدُ أَنْمَّا فَتَنَاهُ) ^(٤) وقوله تعالى في نبيه محمد عليه السلام: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) ^(٥)؟

فقال الرضا عليه السلام: «ويحك يا علي، اتق الله ولا تنسب إلى

(١) سورة طه: آية ١٢١.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٨٧.

(٣) سورة يوسف: آية ٢٤.

(٤) سورة ص: آية ٢٤.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٣٧.

أنبياء الله الفواحش، ولا تتأول كتاب الله برأيك، فإن الله عز وجل قال: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) (١).

وأما قوله عز وجل في آدم عليه السلام: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) فإن الله عز وجل خلق آدم حجة في أرضه وخليفته في بلاده لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر الله، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (٢) « (٣).

وعلى هذا السياق أجاب عليه السلام عن التهمة الشنيعة التي نسبت إلى داود عليه السلام من أنه اطلع في دار قائده «أوريا» فعشق امرأته فقدمه أمام التابوت في المعركة فقتل وتزوج بامرأته! فنسبوا داود عليه السلام. زورا وبهتانا. إلى الفاحشة ثم القتل.

كما كشف عن سبب إخفاء النبي صلى الله عليه وسلم ما بنفسه من أمر زواجه بزینب بنت جحش فقد أطلعه الله تعالى على أسماء أزواجه فوجد اسم زينب مع أسمائهن وكانت تحت زيد بن حارثة فخشي النبي صلى الله عليه وسلم من المنافقين إن أخبر عن ذلك،

(١) سورة آل عمران: آية ٧.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٣.

(٣) عيون أخبار الرضا ١٧ : ١٩١ / ١ باب (١٤).

فعاتبه تعالى بقوله: (وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) (١)،
وليس في هذا ذنب أو ارتكاب معصية.

وفي رواية أخرى أجاب الإمام عليه السلام على سؤال علق بذهن
المأمون حول طلب موسى عليه السلام من ربه الرؤية، مع علمه
باستحالة رؤيته تعالى بالأبصار!، فقال الرضا عليه السلام: «إِنَّ
كَلِيمَ اللَّهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَنْ أَنْ
يُرَى بِالْأَبْصَارِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا رَجَعَ إِلَى
قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّمَهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ، فَقَالُوا:
لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى سَمِعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتُ.. فَاخْتَارَ مِنْهُمْ
سَبْعِينَ رَجُلًا لَمِيقَاتِ رَبِّهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ، فَأَقَامَهُمْ
فِي سَفْحِ الْجَبَلِ، وَصَعِدَ مُوسَى عليه السلام إِلَى الطُّورِ وَسَأَلَ اللَّهَ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُكَلِّمَهُ وَيُسْمِعَهُمْ كَلَامَهُ، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
ذِكْرَهُ وَسَمِعُوا مِنْ فَوْقِ وَأَسْفَلَ وَيَمِينٍ وَشِمَالٍ وَوَرَاءَ وَأَمَامَ، لِأَنَّ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحْدَثَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ جَعَلَهُ مَنبَعًا مِنْهَا حَتَّى
سَمِعُوهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ.

فقالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي سَمِعْنَاهُ كَلَامَ اللَّهِ حَتَّى
نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً!! فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا
وعتوا، بعث الله عز وجل عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم
فماتوا، فقال موسى: يَا رَبِّ مَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا رَجَعْتُ

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٧.

إليهم وقالوا: إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقاً فيما ادّعت من مناجاة الله إياك؟ فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنك لو سألت الله أن يُريك أن تنظر إليه لأجابك وكنت تُخبرنا كيف هو فنعرفه حقَّ معرفته.

فقال موسى عليه السلام: يا قوم إن الله لا يُرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يُعرفُ بآياته ويُعلمُ بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى عليه السلام: يا ربِّ إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلمُ بصلاحتهم، فأوحى الله جلَّ جلاله إليه: يا موسى اسألني ما سألك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى عليه السلام: (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ) وهو يهوي (فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ) بآية من آياته (جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ) يقول: رجعتُ إلى معرفتي بك عن جهل قومي (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١) منهم بأنك لا تُرى»، فقال المأمون: لله دُرُك يا أبا الحسن^(٢).

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

(٢) كتاب التوحيد، الصدوق: ١٢١، ح ٢٤، باب (٨).

ثانياً: مناظرته عليه السلام حول الإمامة

تمثل الإمامة معلماً أساسياً من معالم الإسلام، التي بينها رسول الله صلى الله عليه وآله للأمة إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة. وهي تمثل من جانب آخر. لبنة أساسية في بنية الفكر الإسلامي عامة والشيعي على وجه الخصوص، لا سيما إذا ما عرفنا بأن التشيع هو تجسيد لمبدأ الإمامة.

وفي ظل التجميد المتعمد لأطروحة الإمامة، حاول الأئمة عليهم السلام الاحتفاظ بهذا المفهوم حياً في وعي الأمة ولو على المستوى النظري، لأن غيابها من ذاكرة الأمة تأكيد لحالة المصادرة وإلغاء لهذا المفهوم الهام من منظومة الأفكار والمفاهيم المتحركة في واقع التصور الإسلامي.

عن الريان بن الصلت قال: حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرور، وقد اجتمع في مجلسه جماعة من علماء أهل العراق وخراسان، فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) ^(١) فقالت العلماء: أراد الله عز وجل بذلك الأمة كلها، فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسين؟ فقال الرضا عليه السلام: «لا أقول كما قالوا، ولكني أقول: أراد الله عز وجل بذلك العترة الطاهرة» فقال المأمون: وكيف عنى العترة من دون الأمة؟ فقال له الرضا عليه السلام: «إنه

(١) سورة فاطر: ٣٥ / ٣٢.

لو أراد الأمة لكانت أجمعها في الجنة، لقول الله عز وجل: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِي اللَّهَ بِذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)^(١) ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال عز وجل: (جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ)^(٢)، فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم» فقال المأمون: من العترة الطاهرة؟

فقال الرضا عليه السلام: «الذين وصفهم الله في كتابه فقال عز وجل: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)^(٣) وهم الذين قال رسول الله ﷺ: إني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، أيها الناس لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم».

قالت العلماء: أخبرنا يا أبا الحسن عن العترة، أهم الآل أم غير الآل؟ فقال الرضا عليه السلام: «هم الآل» فقالت العلماء: فهذا رسول الله ﷺ يؤثر عنه أنه قال: «أمّتي آلي» وهؤلاء أصحابه يقولون بالخبر المستفاض الذي لا يمكن دفعه: آل محمد أمّته؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «أخبروني، فهل تحرّم الصدقة على الآل؟» فقالوا: نعم، قال: «فتحرّم على الأمة؟» قالوا:

(١) سورة فاطر: آية ٣٢.

(٢) سورة الكهف: آية ٣١.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

لا، قال: «هذا فرق بين الآل والأمة، ويحكم أين يذهب بكم، أضربتم عن الذكر صفحاً أم أنتم قوم مسرفون؟! أما علمتم أنه وقعت الوراثة والطهارة على المصطفين المهتدين دون سائرهم؟!» قالوا: ومن أين يا أبا الحسن؟ فقال: «من قول الله عز وجل: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (١) فصارت وراثة النبوة والكتاب للمهتدين دون الفاسقين، أما علمتم أن نوحاً حين سأله ربه عز وجل: (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) (٢) وذلك أن الله عز وجل وعده أن ينجيه وأهله، فقال ربه عز وجل: (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (٣).

فقال المأمون: هل فضل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن: «إن الله عز وجل أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه» فقال له المأمون: وأين ذلك من كتاب الله؟ فقال له الرضا عليه السلام: «في قول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ❖

(١) سورة الحديد: آية ٢٦.

(٢) سورة هود: آية ٤٥.

(٣) سورة هود: آية ٤٦.

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) وقال عز وجل
 فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
 فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا
 عَظِيمًا) (٢) ثم ردَّ المخاطبة في أثر هذه إلى سائر المؤمنين،
 فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (٣) يعني الذين قرنهم بالكتاب والحكمة وحسدوا
 عليهما، فقولته عز وجل: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ
 مُلْكًا عَظِيمًا) (٤) يعني الطاعة للمصطفين الطاهرين، فالملك
 ها هنا هو الطاعة لهم .. (٥).

والرواية طويلة قد استعرض الإمام عليه السلام فيها الآيات الواردة
 في حق أهل البيت عليهم السلام كآية التطهير والمودة والمباهلة، كما
 ذكرهم بإخراج النبي صلى الله عليه وآله الناس من مسجده ما خلا العترة،
 وتطرق لحديث مدينة العلم، ومجيء النبي صلى الله عليه وآله إلى باب علي
 وفاطمة عليهما السلام تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس
 مرات، فيقول: «الصلاة رحمكم الله» وما أكرم الله أحداً من
 ذراري الأنبياء بمثل هذه الكرامة التي أكرم الله تعالى بها أهل

(١) سورة آل عمران: آية ٣٣ و ٣٤.

(٢) سورة النساء: آية ٥٤.

(٣) سورة النساء: آية ٥٩.

(٤) سورة النساء: آية ٥٤.

(٥) عيون أخبار الرضا ١٧ : ٢٠٧، ح ١، باب (٢٣).

البيت عليه السلام وخصصهم من دون سائر الأمة.

وكان لهذه المناظرة وقع في نفوسهم بما تميّزت به من براهين قرآنية وأحاديث نبوية لم يرق لها الشك، وبذلك أدار دفعة عقولهم نحو وجهة جديدة، فقال المأمون والعلماء: جزاكم الله أهل بيت نبيكم عن هذه الأمة خيراً، فما نجد الشرح والبيان فيما اشتبه علينا إلا عندكم^(١).

ومن الواضح أن هذا الحديث قد تطرّق لمحاوّر عدة تتعلّق بإمامة أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم، هي:

١ - الفرق بين العترة والأمة

دار الحوار حول تفسير بعض الآيات القرآنية التي تدل على أفضلية ومكانة أهل البيت عليهم السلام وبالتالي أهليتهم للإمامة، ولكنها فسّرت على غير معناها الحقيقي، وضرب حولها سور هائل من التعقيم، فأزال إمامنا سوء الفهم الحاصل، وحدّد المعنى المراد.

والملاحظ أنه استعمل المنهج «النقلي» معتمداً على القرآن والسنة، ومستعملاً في التفسير منهج «التفسير الموضوعي»

(١) عيون أخبار الرضا ١٧: ٢٠٧، ح ١، باب (٢٣).

وليس المنهج التجزيئي الذي ينظر للآية بمعزل عن الآيات الأخرى، وقد مرّ نص هذا الحوار في الفصل الثالث، وعرفنا كيف احتج الإمام عليه السلام بنصوص كثيرة من القرآن الكريم تلاها على مسامع المأمون ومن كان معه بكل بسالة ولم يأبه بالمأمون ولا بحاشيته أو مخالفه في العقيدة.

٢ - استعراض الآيات الدالة على اصطفاء الأئمة:

ثمّ طلب منه العلماء أن يستشهد بآيات تدل على اصطفاء الله تعالى لآل البيت عليهم السلام في الكتاب، فذكر اثنتا عشرة آية تدل على ذلك: منها (آية الإنذار) و (آية التطهير) و (المباهلة) وعند آية (المودة في القربى) قال: «وهذه خصوصية للنبي صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة وخصوصية لآل دون غيرهم، وذلك ان الله عزّ وجلّ حكى في ذكر نوح في كتابه: (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ..)»^(١) وحكى عزّ وجلّ عن هود انه قال: (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ)^(٢) وقال عزّ وجلّ نبيه محمد صلى الله عليه وآله: (قُلْ يَا مُحَمَّد (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى))^(٣) ولم

(١) سورة هود: آية ٢٩.

(٢) سورة هود: آية ٥١.

(٣) سورة الشورى: آية ٢٣.

يفرض الله تعالى مودّتهم إلا وقد علم انهم لا يرتدون عن الدين أبدا ولا يرجعون إلى ضلال أبدا.. فأى فضيلة وأي شرف يتقدم هذا أو يدانيه؟^(١).

والمفارقة العجيبة أنه في الوقت الذي يقرع فيه الإمام عليه السلام أسماعهم بهذه الاستدلالات والشواهد القرآنية البديعة التي لا ينكرها إلا أعمى أو معاند، قالت العلماء: يا أبا الحسن، هذا الشرح وهذا البيان لا يوجد إلا عندكم معاشر أهل بيت رسول الله ﷺ!

فقال: «ومن ينكر لنا ذلك ورسول الله يقول: أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها؟ ف فيما أوضحنا وشرحنا من الفضل والشرف والتقدمة والاصطفاء والطهارة ما لا ينكره إلا معاند لله عز وجل»^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا ١٧: ٢١٧، ح ١، باب (٢٣).

(٢) عيون أخبار الرضا ١٧: ٢١٧، ح ١، باب (٢٣).

٣ - مقام أهل البيت (عليهم السلام) عند الله عز وجل

من اللغات القرآنية البديعة التي تكشف عن عمق إيماننا المعرفي بالقرآن وكونه أحد تراجمته، جوابه البديع للمأمون عندما طلب منه أن يستدل على مكانة آل في القرآن حتى يكون ألزم للخصم مما تقدم، فقال أبو الحسن (عليه السلام): «نعم، أخبروني عن قول الله عز وجل: (يس) ❖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ❖ إِنَّكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ❖ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١) فمن عني بقوله يس ٩».

قالت العلماء: يس محمد ﷺ لم يشك فيه أحد.

قال أبو الحسن: «فإن الله عز وجل أعطى محمداً وآل محمد من ذلك فضلاً لا يبلغ أحد كنه وصفه إلا من عقله، وذلك أن الله عز وجل لم يُسلم على أحد إلا على الأنبياء صلوات الله عليهم، فقال تبارك وتعالى: (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)^(٢) وقال: (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)^(٣) وقال: (سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)^(٤) ولم يقل: سلام على آل نوح، ولم يقل: سلام على آل إبراهيم، ولا قال: سلام على آل موسى وهارون، وقال

(١) سورة يس: الآيات ١ - ٤.

(٢) سورة الصافات: آية ٧٩.

(٣) سورة الصافات: آية ١٠٩.

(٤) سورة الصافات: آية ١٢٠.

عزَّوجلَّ: (سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ)^(١) يعني آل محمد صلوات الله عليهم».

فقال المأمون: لقد علمت ان في معدن النبوة شرح هذا وبيانه^(٢).

٤ - الأئمة عليهم السلام هم أهل الذكر:

ضمن سياق الحوار الذي دار في هذا المجلس كان حديث الإمام ينساب كنهر متدفق، فتطرق معهم إلى مفهوم «أهل الذكر» ولفت نظرهم إلى هذا المفهوم الهام الذي أريد له أن يغيب عن الأذهان ويمحى عن الذاكرة ويُسدل عليه ستار النسيان، من خلال التفسير القاصر، قال لهم: «فنحن أهل الذكر فاسألونا إن كنتم لا تعلمون».

فقالت العلماء: إنما عنى الله بذلك اليهود والنصارى.

فقال أبو الحسن عليه السلام: «سبحان الله! وهل يجوز ذلك؟ يدعوننا إلى دينهم، ويقولون: انه أفضل من دين الإسلام!».

فقال المأمون: فهل عندك في ذلك شرح بخلاف ما قالوه

(١) سورة الصافات: آية ١٣٠.

(٢) عيون أخبار الرضا ١٧: ٢١٤، ح ١، باب (٢٣).

يا أبا الحسن؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «نعم، الذكر رسول الله، ونحن أهله، وذلك بين في كتاب الله عز وجل حيث يقول في سورة الطلاق: (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ❖ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ) (١) فالذكر رسول الله ﷺ ونحن أهله» (٢).

وفي نهاية المطاف اعترف المأمون ومن معه من العلماء بمقدرة الإمام العلمية وأنه بحر زاخر، وأقرّوا بأفضلية أهل البيت عليهم السلام، وقالوا: «جزاكم الله أهل بيت نبيكم عن هذه الأمة خيرا، فما نجد الشرح والبيان فيما اشتبه علينا إلا عندكم» (٣).

(١) سورة الطلاق: آية ١٠ - ١١.

(٢) عيون أخبار الرضا ١٧: ٢١٦، ح ١، باب (٢٣).

(٣) عيون أخبار الرضا ١٧: ٢٠٧-٢١٧، ح ١، باب (٢٣)، وأمالى الشيخ

الصّدوق: ٦١٥، المجلس (٧٩).

ثالثاً: مناظرته ﷺ حول البداء

البداء من المسائل المعقدة التي كثرا لجدل والنزاع حولها قديماً وحديثاً، فما هو البداء؟

البداء لغةً: ظهور الشيء بعد خفائه.. وبدا له في هذا الأمر بداءً، أي: تغيير رأيه عمّا كان عليه بعد أن ظهر له فيه رأي آخر^(١).

وقد اتهم الشيعة بنسبة الجهل إلى الله تعالى استناداً إلى المعنى اللغوي المتقدم للبداء، والحال أن الشيعة يتبرؤون من هذه التهمة الشنيعة، وهم يكفرون كل من ينسب الجهل إلى الله تعالى، ويرون بأنه تعالى لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، وأنه ليس محلاً للحوادث والتغيرات، لاستلزام ذلك خروجه. عز وجل. عن حضيرة الوجوب إلى الإمكان، زد على ذلك أن الشيعة متفقون على أن الله تعالى عالم بالجزئيات كعلمه بالكليات، وعلمه بالمعدوم كعلمه بالموجود، وآراء الشيعة هذه مدونة في عشرات الكتب والرسائل والبحوث تحت عنوان «البداء».

والحال أن حقيقة البداء عندهم ليس ظهور الأمر لله تعالى بعد أن كان خافياً عليه، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً بل هو ظهور أمر لنا منه تعالى لم يكن مرتقياً، يعد مساوقاً

(١) لسان العرب / ابن منظور ١٤: ٦٥، مفردات الراغب: ٤٠، مادة (بدا).

لتغيير القضاء كما هو عند الجمهور، وعليه فالبداء عند الشيعة الإمامية هو البداء الواقع في (التكوينيات) كالنسخ المتعلق بـ (التشريعات)، فكما أن النسخ في التشريعات أمر جائز وسائغ، كذلك البداء في التكوينات أمر سائغ وممكن وجائز.

ثم إن البداء يكون في القضاء الموقوف المعبر عنه بـ (لوح المحو والإثبات) والالتزام بجواز البداء فيه لا يستلزم نسبة الجهل إلى الله سبحانه، وليس في هذا الالتزام ما يناه في عظمته وجلاله.

وهناك آيات قرآنية كثيرة تثبت بأن الله تعالى مبسوط اليدين في مجال التكوين، يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء، منها: قوله تعالى: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (١).

وتوجد أحاديث في صحاح السنة تشير إلى حصول المحو والإثبات الإلهيين، وإمكانية التغيير والتبديل فيما كتبه الله وقدره وفقاً لمشيئته وإرادته تعالى، منها ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: (كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (٢) أنه قال: «إن الله يحدث من أمره ما

(١) سورة الرعد: آية ٣٩.

(٢) سورة الرحمن: آية ٢٩.

يشاء، وإنَّ مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة»^(١).

وياسناد عن أنس بن مالك أن نبينا ﷺ لما صعد إلى السماء واجتمع بالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، نصحه موسى ﷺ بأن يراجع ربه لتخفيف الصلاة عن أمته فيما فرضه الله على أمته من خمسين صلاة في كل يوم، وبعد أن راجع الرسول ﷺ ربه عدة مرات حسب نصيحة موسى ﷺ خفف الله تعالى الصلاة من خمسين إلى خمس صلوات^(٢).

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى بدا لله أن يبتليهم...»^(٣) ثم ساق الخبر (الصحيح).

ومن هذه الأحاديث يظهر بوضوح دخول فكرة البداء عند أقطاب المحدثين ورواة المسلمين في دائرة المحو والإثبات المصرح بها في القرآن الكريم، لكن المؤسف حقاً أنها قد استغلت من قبل خصوم الشيعة للتشنيع والتشهير.

ويقتضي التنويه بأن «مصالح العباد متوقفة على القول

-
- (١) صحيح البخاري ٩: ١٨٧. باب: قول الله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ).
- (٢) أنظر: صحيح البخاري ١: ٩٨، كتاب الصلاة، وأيضا ٩٦: ١٨٢، باب قوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا).
- (٣) صحيح البخاري ٤: ٢٠٨-٢٠٩، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

بالبداء، إذ لو اعتقدوا أنّ كل ما قُدِّر في الأزل فلا بُدَّ من وقوعه حتماً لما دعوا الله تعالى في شيء من مطالبهم، وما تضرَّعوا إليه، وما استكانوا لديه، ولا خافوا منه، ولا رجعوا إليه، وإذا انتفت هذه الأمور فلا يبقى مجال للصدقة وصلة الرحم، وبرِّ الوالدين، وغير ذلك من صالح الأعمال.

وجدير بالذكر هو أن أول من نفي القول بالبداء هم اليهود الذين قالوا لعنهم الله: إن يد الله مغلولة! غلَّت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا. بل هو سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

أساليبه التربوية

خَلَّف لنا الإمام الرضا عليه السلام مجموعة قيمة من التعاليم والوصايا التربوية والحضارية لكي تنير لنا الطريق، وتصنع في النفوس المؤمنة صنيع الغيث في التربة الكريمة، وتساعد الإنسان المسلم عند مراعاتها على ارتقاء سلّم القيم أو على الأقل ترميم ما تهدم منها.

إن للإمام عليه السلام تعاليم تربوية تساعد الإنسان المؤمن كيفية السيطرة على نفسه وكبح جماحها، وإيقاظ ما في النفس البشرية من قيم ومشاعر وأحاسيس تسعى إلى استئصال كل

جذور الشرِّ في نفوس البشر.

ومن مجموعها يستفاد أن الإمام عليه السلام يريد للإنسان من خلال السيطرة على نفسه الارتفاع إلى مستوى إيماني أعلى، انطلاقاً من تعدّد مراتب الإيمان كما جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام بأن الإيمان: يزيد وينقص ويشتدّ ويضعف.

عن أبي عمر الزبيدي: قال الإمام الصادق عليه السلام: « الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح الزائد » قلت: إنَّ الإيمان ليطم وينقص ويزيد؟ قال: « نعم »^(١).

وقد نسج الإمام الرضا عليه السلام على منوال جده الصادق عليه السلام فحثَّ الإنسان المسلم على الارتقاء إلى مراحل إيمانية عالية والتحليق في مدارات روحية أسمى.

روى الفضيل بن يسار عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: « إنَّ الإيمان أفضل من الإسلام بدرجة، والتقوى أفضل من الإيمان بدرجة، ولم يُعط بنو آدم أفضل من اليقين »^(٢).

فإمامنا عليه السلام يريد للمؤشر الإيماني أن يرتفع لدينا وأن

(١) أصول الكافي ٢: ٣٣، ح ١، كتاب الإيمان والكفر.

(٢) أصول الكافي ٢: ١٦، ح ٦، باب: فضل الإيمان على الإسلام واليقين على الإيمان.

نصل إلى حقيقة اليقين المتمثل بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء.

عن سليمان الجعفري، عن أبي الحسن الرضا، عن أبيه عليه السلام قال: «رفع إلى رسول الله ﷺ قوم في بعض غزواته فقال: من القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول الله، قال: وما بلغ من إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء، فقال رسول الله ﷺ: حلماء علماء، كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء، إن كنتم كما تصفون، فلا تبنا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون»^(١).

من جانب آخر نجد أن الإمام الرضا عليه السلام يدعو الإنسان إلى أن يضع نصب عينه دائما حقائق أساسية في الحياة، هي: الموت وأنه لا بد منه، والقدر وتحكمه فيه، والحياة وتحويلها من حال إلى حال، فمن تيقن بالموت فسوف يحسب ألف حساب لما بعده من البعث والجزاء، وعندها سيسيطر على سلوكه ويهذب خوفًا من الحساب المرتقب.

ومن يدرك قوة القدر الجبارة التي تتحكم فيه، لا يحزن لما يصيبه من مصائب ونوازل، ولا يفقد توازنه إزاءها.

(١) أصول الكافي ٢: ٤٨، ح ٤، باب: خصال المؤمن، كتاب الإيمان والكفر.

ومن يعي بأن الدنيا متقلبة الأحوال لا يركن إليها، ويوطن نفسه مسبقاً على ما يصيبه منها من خيرٍ أو شرٍ، وحينئذ لا يبطر عند السراء ولا يجزع في الصراء.

وللإمام وصايا وإرشادات تربوية وحضارية تسلك بالإنسان المسلم قصد السبيل، وتستأصل شأفة الشر من نفسه الأمانة بالسوء، وتساهم في طهارة نفسه وبدنه ومنها:

التزام الصمت:

لا يخفى بأن أكثر مشاكلنا تتأتى من اطلاقنا العنان لألسنتنا بدون ضابط، وأن الكثير منا يرغب في الكلام أكثر من الاستماع، وهنا تستدعي الضرورة في أحيان كثيرة أن نتربى على الاعتصام بالصمت في حالات الانفعال أو المواقف الحرجة، أو من أجل الحفاظ على الأسرار، من هنا يشيد إمامنا عليه السلام بالصمت، فهو عنده من علامات الفقه، وباب من أبواب الحكمة، ويرى بأن له معطيات اجتماعية عديدة.

عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنَّ الصمت يكسب المحبة، إنه

دليل على كل خير»^(١).

ومن المفيد التذكير أن هناك علاقة وثيقة بين العبادة والصمت، فالعبادة عادةً تحتاج إلى صفاء وتفرغ عن المشاكل، واللسان المهذار أحد الأسباب التي تكدر صفو العبادة، وقد تسهم في إبطالها كما إذا تفوّه الإنسان بكلمات كبيرة كالقذف والسباب والفسوق وما إلى ذلك.

وعموماً فإطلاق العنان للسان، وهو المعروف بعثراته وزلاته، يوقع الإنسان في شرك الشيطان الذي يوحى له بالسوء والفحشاء، الأمر الذي ينعكس سلباً على العبادة. من هنا ينبه الإمام عليه السلام إلى حقيقة منطقية، هي: أن السيطرة على النفس لا تتم إلا من خلال تنزيه اللسان عن عبارات السوء والفحشاء:

عن الوشاء، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك عشر سنين»^(٢).

(١) أصول الكافي ٢: ١١٣، ح ١ باب: الصمت وحفظ اللسان، وكشف الغمة

٣: ٨٥، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

(٢) أصول الكافي ٢: ١١١ عليه السلام، ح ١٩، باب: الصمت وحفظ اللسان.

الْحُلْمُ:

يَحْتَّ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْحُلْمِ وَيَعْتَبِرُهُ مِنْ عِلَامَاتِ الْفَقْهِ كَالْعِلْمِ وَالصَّمْتِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي نَصْرٍ قَالَ: قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مِنْ عِلَامَاتِ الْفَقْهِ الْحُلْمُ وَالْعِلْمُ وَالصَّمْتُ...»^(١).

وَيَحْدَدُ لَنَا قَاعِدَتَيْنِ تَرْبَوِيَّتَيْنِ، هُمَا: السُّكُوتُ عَنِ الْجَاهِلِ، وَعَدَمُ عِتَابِ الصَّدِيقِ، فَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْبَيْئَةُ الَّتِي تَرْبَى فِيهَا وَالتَّرْبِيَةُ الْخَاطِئَةُ الَّتِي تَلْقَاهَا، هِيَ السَّبَبُ فِي بَعْضِ تَصَرُّفَاتِهِ غَيْرِ السَّلِيمَةِ، وَهَذَا لِأَبَدٍ مِنَ السُّكُوتِ وَغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الْهَفْوَاتِ غَيْرِ الْمَهْمَةِ الَّتِي تَصَدَّرُ مِنْهُ بِصُورَةٍ عَفْوِيَّةٍ، وَعَدَمِ مَعَاتِبَتِهِ عَلَيْهَا، لِأَنَّ الْعِتَابَ قَدْ يَتَطَوَّرُ إِلَى جِدَالٍ بِالْبَاطِلِ، الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ يَتَسَبَّبُ فِي قَطْعِ عُرُوقِ الْعِلَاقِ بَيْنِ الْجَانِبَيْنِ. وَهَذَا يَصَبُّ إِمَامَنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ التَّرْبَوِيَّةَ فِي قَالِبِ جَمِيلٍ مِنَ الشَّعْرِ، قَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ^(٢): هَلْ رُوِيَ مِنَ الشَّعْرِ شَيْئًا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَدْ رُوِيَ مِنْهُ الْكَثِيرُ، فَقَالَ: أَنْشَدْنِي أَحْسَنَ مَا رُوِيَ فِي الْحُلْمِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(١) أصول الكافي ٢: ١١٣، ح ١، باب: الصمت وحفظ اللسان.

(٢) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢: ١٨٧، ح ١، باب (٤٢).

إذا كان دوني من بليت بجهله

أبيت لنفسي أن تقابل با لجهل

وإن كان مثلي في محلي من النهى

أخذت بحلمي كي أجل عن المثل

وإن كنت أدنى منه في الفضل والنهى

عرفت له حق التقدم والفضل

فقال له المأمون: ما أحسن هذا، من قاله؟! فقال بعض
فتياننا، قال: فأنشدني أحسن ما رويته في السكوت عن
الجاهل وترك عتاب الصديق، فقال عليه السلام:

إني ليهجرني الصديق تجنبا	فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريته	فأرى له ترك العتاب عتابا
وإذا بليت بجاهل مستحکم	يجد المحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما	كان السكوت عن الجواب عتابا

ثمّ قال المأمون: أنشدني أحسن ما رويته في استجلاب
العدو حتى يكون صديقا، فقال عليه السلام:

ومن لا يدافع سيئات عدوه

يا حسانه لم يأخذ الطول من علٍ

ولم أر في الأشياء أسرع مهلكا

لغمر^(١) قديم من وداد معجلٍ

فالإمام هنا ونتيجة للأفق الاجتماعي الرّحب الذي يتمتع
به يدعو ليس فقط إلى السكوت عن الصديق وإنما إلى أبعاد
من ذلك بكثير إلى استجلاب العدو حتى يكون صديقا! ..إنها
النفوس الكبيرة.

(١) الغمر: الحقد.

الحياء:

وهو رأس الخصال الكريمة، وأصل المرودة وسبب العفة. والعلاقة وثيقة بين الإيمان والحياء، فكلما زاد حياء الإنسان دل على مدى عمق إيمانه، وأما من خلع ثوب الحياء فلا إيمان له، يقول الرسول الأكرم ﷺ: «الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه»^(١).

وقد أكد الإمام الرضا ﷺ على هذه الحقيقة المهمة، حقيقة التلازم بين الإيمان والحياء، فقال ﷺ: «الحياء من الإيمان»^(٢). ومن هنا فمن يخلع حزام العفة وينطلق مع شهواته ولا يبالي بما قيل له أو فيه لا إيمان له واقعاً؛ لأن الإيمان التزام وشعور متغلغل في أعماق النفس يحكي عنه الحياء بجلاء.

التواضع:

وهو خصلة أخلاقية جميلة احتلت مكانا واضحا في فكر وسلوك إمامنا الرضا ﷺ؛ فعلى صعيد الفكر كشف عن المفهوم العميق للتواضع، وبين حدّه ودرجاته، ومن يتمنّ في

(١) كنز العمال / المتقي الهندي ٣: ١٢١ / ٥٧٥٥.

(٢) عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ٢٥٦، ح ٢٣، باب (٢٦) حول الحياء.

الرواية التالية يكتشف نفاذ رؤية الإمام عليه السلام وشمول نظرتة وعمق تناوله.

عن الحسن بن الجهم، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال:
«التواضع أن تعطي الناس ما تحب أن تعطاه».

وفي حديث آخر قال: «التواضع درجات؛ منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم، لا يحب أن يأتي إلى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عافٍ عن الناس، والله يحب المحسنين»^(١).

فهو يقدم لنا قراءة عظيمة لمفهوم التواضع، تنطلق من رؤيا دقيقة وموضوعية مفادها أن يعرف المرء أولاً وقبل كل شيء قدر نفسه ومنزلتها، ولا يرتفع بها فوق مقامها، كي لا يلام على ذلك، وقد يكون عرضةً للسخرية والاستهزاء. وأن لا يحب لنفسه ما لا يحب لغيره، بل عليه أن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه، إضافة إلى ذلك يشير إمامنا إلى بُعد أبعد للتواضع فيه جنبه اجتماعية، ويتمثل بدرء السيئة بالحسنة، وكظم الغيظ والعضو عن الناس.

(١) أصول الكافي ٢: ١٢٤، ٧ باب التواضع.

هذا على صعيد الفكر أمّا على صعيد العمل فنجدّه في سلوكه ﷺ يتواضع إلى الدرجة القصوى في تعامله مع الناس، ومن الأمثلة الحية على مقدار تواضعه، أنه دخل الحمام، فقال له بعض الناس: دلّكني يا رجل، فجعل يدلكه، فعرفّوه، فجعل الرجل يستعذر منه وهو ﷺ يُطيب قلبه ويدلكه^(١).

فهو يرى أن الشرف والكرامة تتحقّق من خلال القيم والمقاييس المعنوية المتمثلة بالتقوى والطاعة لله تعالى وليس من خلال القيم والمقاييس المادية المتمثلة بالحسب والنسب، أو المال والقدرة وما إلى ذلك.

وكان عندما يكيلون له أو لآبائه: المديح والثناء يتواضع جدا ويكشف لهم عن المفهوم القرآني للشرف والخيرية المتمثّل بالتقوى:

عن محمد بن موسى بن نصر الرازي، قال^(٢): سمعت أباي، يقول: قال رجل للرضا ﷺ: والله ما على وجه الأرض أشرف منك أبا، فقال ﷺ: «التقوى شرفتهم، وطاعة الله

(١) المناقب ٤: ٣٩.

(٢) عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ٢٦١، ح ١٠، باب (٥٨).

أحظتهم»، فقال له آخر: أنت والله خير الناس، فقال له: «لا تحلف يا هذا، خير مني من كان أتقى لله تعالى وأطوع له، والله ما نسخت هذه الآية: وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(١).

حاول بذلك التنبيه على أن الاعتماد على محض القرابة ليس يستحسن في العقول، وإنما الشرف في الكمال العلمي والعملي ورأسهما التقوى.

وعن ابن ذكوان قال: سمعت إبراهيم بن العباس يقول: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: «حلفت بالعتق ولا أحلف بالعتق إلا أعتقت رقبة، وأعتقت بعدها جميع ما أملك إن كان يرى أنه خير من هذا. وأوماً إلى عبد أسود من غلمانه. بقرباتي من رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن يكون لي عمل صالح فأكون أفضل به منه»^(٢).

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٩: ٩٥، باب (٧).

العمل لوجه الله تعالى:

العمل شعار المؤمن، وهو الذي يسهم في إيصاله إلى أعلى الدرجات، قال تعالى: «ومن يأتيه مؤمناً قد عمل الصّالحات فأولئك لهم الدرجات العلى»^(١) والعمل هو الذي يفجر طاقات النفس الإبداعية، فتنتقل في آفاق أرحب وتحيا حياة طيبة، يقول عز وجل: (ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحييته حياة طيبة)^(٢).

ومعلوم أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام تركز على «الثنائي الحضاري» المتمثل بالإيمان المقترن بالعمل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل »^(٣).

والإمام الرضا عليه السلام يدعو المؤمن إلى سبر أغوار نفسه ومعرفة دافع العمل الذي يقوم به هل هو خالص لله أم لا ؟ فليس العمل المجرد في الإسلام هو المطلوب، وإنما العمل المقترن بدوافع نبيلة ونية خالصة، والبعيد عن الرياء والسمعة، بتعبير آخر أن يكون خالصاً لله. وفي هذا الصدد يصوغ لنا إمامنا قاعدة عبادية، هي: «من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل».

(١) سورة طه: آية ٧٥.

(٢) سورة النحل: آية ٩٧.

(٣) نهج البلاغة: ٤٩٧، حكمة رقم / ١٥٠.

عن محمد بن عرفة قال: قال لي الإمام الرضا عليه السلام: «ويحك يا ابن عرفة، اعملوا لغير رياء ولا سُمعة، فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ويحك! ما عمل أحد عملاً إلا رُدَّاه الله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ»^(١).

ثمّ ان الاستتار بالعمل يبعده عن الرياء والسمعة، ويوجب مضاعفة الثواب:

عن العباس مولى الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول: «المستتر بالحسنة يعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له»^(٢).

وفي جانب آخر يصوغ لنا إمامنا قاعدة تتعلّق بالقناعة بالرزق وعلاقته بالعمل، ومفادها: «من يقتنع بالقليل من الرزق يكفيه القليل من العمل».

قال عليه السلام: «من لم يقنعه من الرزق إلا الكثير لم يكفه من العمل إلا الكثير ومن كفاه من الرزق القليل فإنه يكفيه من العمل القليل»^(٣).

(١) أصول الكافي ٢: ٢٩٤ باب الرياء.

(٢) أصول الكافي ٢: ٤٢٨ / ١ باب ستر الذنوب.

(٣) أصول الكافي ٢: ١٣٨ / ٥ باب القناعة.

فالإمام يذمّ. بصورة ضمنية. التكاليف على الدنيا، ويرى بأن القناعة كترية خصبة ينمو فيها العمل ولو كان قليلاً ما دام خالصاً لله تعالى. أما حرص الإنسان على الحصول على فوق ما يكفيه من الرزق فقد يشغله بملذّات ومغريات الدنيا، فيحتاج. والحال هذه. إلى عمل عبادي أكثر يتناسب وحجم ما يسعى لتحصيله كما هو مفاد الحديث.

الاستغناء عن الناس:

يدعو الإمام عليه السلام في تعاليمه التربوية على الاعتماد على النفس والامتناع عن طلب الحوائج من الآخرين وخاصة إذا كانوا مخالفين، صيانة لماء الوجه، وتنزيهاً للنفس عما يشينها:

عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: جعلت فداك اكتب لي إلى إسماعيل بن داود الكاتب لعليّ أصيب منه، قال: «أنا أضنّ بك أن تطلب مثل هذا وشبهه، ولكن عوّل على مالي»^(١). فالإمام يريد العزة

(١) أصول الكافي ٢: ١٤٩ / ٥ باب الاستغناء عن الناس.

والكرامة للمسلم، وأن لا يكون كلاً على غيره، وإن كان ولا بُد
من الطلب فينبغي أن تُطلب الحاجة من الأفراد الصالحين،
وأن لا تكون الحاجة خسيصة وغير ذات قيمة.

الاهتمام بالمظهر:

إن الإسلام حثّ من اعتنقه على الاهتمام بالنظافة عموماً،
كما حثّ على الاهتمام بالأناقة، وكان الرضا عليه السلام يلفت النظر
إلى أهمية الطيب، وفي هذا المجال يقول: «لا ينبغي للرجل
أن يدع الطيب في كل يوم، فإن لم يقدر عليه فيوم ويوم لا، فإن
لم يقدر ففي كل جمعة، ولا يدع ذلك»^(١).

وعن الحسن بن الجهم، قال: قال أبو الحسن عليه السلام: «كان أمير
المؤمنين عليه السلام يقول: لا يأبى الكرامة إلا حمار، قلت: ما معنى
ذلك؟ قال: «التوسعة في المجلس والطيب يُعرض عليه»^(٢).

(١) كشف الغمة ٣: ٨٦، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧٨، ح ٧٧، باب (٢٨).

نخلص من هذا كله إلى القول بأن الإمام الرضا عليه السلام قد ترك لنا ثروة معنوية لا تقدر بثمن، هي مجموع الأفكار العقائدية والتعاليم التربوية الرائعة التي ينبغي أن نضعها نصب أعيننا من أجل الارتفاع بمستوى الإنسان الحضاري والتوجه إلى مدارج الكمال والرفعة.

الفهرس

- المقدمة ٣
- حواراته عليه السلام مع أهل الأديان ٧
- أولاً: إثبات نبوة نبينا عليه السلام من الكتب السماوية ٧
- ثانياً: إبطال عقيدة النصارى في المسيح عليه السلام ١٤
- ثالثاً: الرد على عقيدة اليهود ١٨
- رابعاً: الرد على المجوس ١٩
- خامساً: الرد على الصابئة ٢١
- سادساً: الرد على الزنادقة ٢٢
- حواراته مع أهل الإسلام ٢٦
- أولاً: مناظرته عليه السلام حول عصمة الأنبياء ٢٧
- ثانياً: مناظرته عليه السلام حول الإمامة ٣٢
- الفرق بين العترة والأمة ٣٦

- ٣٧..... استعراض الآيات الدالة على استطفاء الأئمة
- ٣٩..... مقام أهل البيت عليهم السلام عند الله عز وجل
- ٤٠..... الأئمة عليهم السلام هم أهل الذكر
- ٤٢..... ثالثاً: مناظرته عليه السلام حول البداء
- ٤٥..... أساليبه التربوية
- ٤٨..... التزام الصمت
- ٥٠..... الحلم
- ٥٣..... الحياء
- ٥٣..... التواضع
- ٥٧..... العمل لوجه الله تعالى
- ٥٩..... الاستغناء عن الناس
- ٦٠..... الاهتمام بالمظهر

لقد كان من ضمن اهتمامات الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وحرصه الشديد هو بناء الإنسان فكريا وتربويا وتسليحه بثقافة محصنة بعلم لا يؤخذ إلا من منابعه الصحيحة وذلك بسبب نشوء حركات فكرية بلغت الغاية في نشاطها وانتشارها بعد أن اتسعت رقعة الإسلام وكثرت الفتوحات ما أدى إلى اتصال المسلمين بالأُمم الأخرى، فظهرت على إثر ذلك مقالات غريبة وتيارات أجنبية عن الإسلام، وكانت صور الصراع الفكري تتمثل في الخطابات المتبادلة ومجالس المناظرة، فقام الإمام الرضا عليه السلام بنشر فكر مدرسة أهل البيت عليهم السلام العقائدية منها والفقهية، وكان في فترة ولاية العهد يعقد المؤتمرات والندوات، ويواجه أصحاب العقائد المنحرفة ويدحض حججهم ويصح مفاهيمهم الخاطئة، وينشر الوعي الإيماني حتى أسلم على يديه بعض الملاحدة والنصارى. وكانت شهرته قد طبقت الآفاق، وغدا شخصه العظيم حديث الساعة حينئذ، ومحط اهتمام العلماء لغزارة علمه ومتانة استدلاله، وقد حفظ لنا التاريخ روائع رضوية كثيرة في هذا المجال.

